سيميائيات المنطق اليوناني

هواري حمادي
جامعة معسكر، الجزائر

يقول إيكو : "لا أظن أنه من قبيل عدم الإحساس بالمسؤولية الذهاب إلى أنه يمكن أحيانا أن يتقدم بحث علمي أشواطا كبيرة في اكتشافاته من دون أن يطرح مع ذلك مسألة أسسه الفلسفية" (ايكو، أ. 2005 : 34) فلا مفر لنا من الرجوع إلى الأسس الفلسفية لأي علم وأي موضوع وأي منهج، إذا أردنا فهمه على حقيقته، واستثماره في طرح تختلف المسائل النظرية والعملية بصورة فعالة وهادفة، وهذا الحكم من دون شك هو أكثر انطباقا على المباحث السيميائية، مادامت تشتغل على المعنى أو المدلول الذي يعتبر الهاجس المركزي للإنسان في بناء العلاقة مع العالم ، وفي فهم حقائق الأشياء الذي تجسد في أبحاث الفلاسفة منذ القديم والى يومنا هذا .

من هذه الوجهة أصبح الحديث عن السيميائيات ينظر إليه من وجهة فلسفية عند الكثير من المفكرين و الفلاسفة في الفترة المعاصرة، وكانت نظرياتهم وأفكارهم ومناهجهم المنطلق الجوهري لظهور علم السيميائيات، ولكن هذه النظرة من دون شك ليست وليدة اللحظة الراهنة بل ترجع إلا الاطلاع العميق عند هؤلاء على أفكار الفلاسفة السابقين أو الرجوع إلى الأرضية الأولى لتبلور المباحث السيميائية، كما يظهر ذلك عند أحد رواد السيميائيات في الفترة المعاصرة وهو الفيلسوف الإيطالي أمبرتو إيكو (1932) أستاذ السيميائيات الذي أكد على ضرورة البحث في الجذور الأولى لها لبناء فهم حقيقي لها، حيث طرحت القضايا الأولى لها في نظره منذ ظهور الفكر الفلسفي اليوناني القديم مع الفلاسفة الطبيعيين حين ظهرت البذور الأولى لمفهوم العلامة كمصطلح تقني مع بارمانيدس و أبو قراط، وظهر التمييز القاطع بين مصطلحي العلامات والكلمات في كتابة الخطابة لأرسطو.

من هذا المنطلق كانت ولا تزال المباحث الفلسفية ذات صلة وثيقة بعلم السيميائيات، ولاسيما إن كانت هذه الأخيرة تجد جذورها الأولى في الأبحاث المتعلقة باللغة في الفكر الكلاسيكي، ومما لاشك أن أهم هذه الأبحاث هو المنطق الذي كان ولا يزال وثيق الصلة بالفلسفة، ونستطيع القول باختصار أنه منهجها باعتباره آلة أو أرغونانا على حد تعبير الكثير من الفلاسفة، بل يتجاوز ذلك إلى ذلك إلى أنه علم متميز يجمع أسس التفكير وإنتاج المعاني الصحيحة، وفلسفة قديمة للعلم والمعرفة واللغة وكل ما من شأنه أن يساهم في إنتاج الممارسة الدلالية، ومما لا شك أن هذه الفلسفة القديمة هي الفلسفة الجديدة التي تعرف اليوم بالسيميائيات والتي لا يمكن فهمها إلا بالرجوع إلى تلك الفلسفة الأولى، هذا الاعتبار هو ما دفعنا إلى الإطلاع على تاريخ السيميائيات وأسسها الفلسفية بالرجوع إلى المنطلقات والأسس المنطقية لها، ولاسيما إن كان المنطق باعتباره علما معياريا يحدد الشروط الصورية للاستدلالات الصحيحة، لا يختلف عن الأصل الأول لمفهوم العلامة ألا وهو أصلها الاشتقاقي الأول، وهو كلمة الدليل التي تعتبر المحدد الجوهري لمعنى الاستدلال في المنطق.

فالبحث في الأصول المنطقية لعلم السيميائيات من القضايا الجوهرية لمعرفة تاريخ السيميائيات، وهي المسألة التي سنسعى إلى إثارتها في هذه المداخلة كما طرحها امبرتو ايكو الذي يتميز عن غيره من الباحثين في هذا الميدان أنه يبني مختلف تصوراته السيميائية على الأسس الفلسفية انطلاقا من أن الموضوع الأول لها يكمن في البحث عن المعنى وأشكال وجوده وقواعد التعبير عنه، ونحن ندرك أن الفلسفة حسب جيل دولوز هي إنتاج المفاهيم، و هذه الأخيرة بدورها لا تضبط إلا بقواعد معينة، وهي ما تمثل المنطق الذي اعتبره الكثير من الباحثين في تاريخ السيميئيات الحقبة الكلاسيكية لها، فكيف نستطيع فهم الأصول المنطقية لعلم السيميائيات حسب تصورات الفيلسوف الإيطالي أمبرتو ايكو؟ هذه المسألة سنعالجها بإثارة أربعة عناصر وهي:

1- المنطق هو المفهوم الكلاسيكي للسيميائيات.
2- المباحث السميائية الأولى.
3 - المنطق الأرسطي وعلم السيميائيات.
4- المنطق الرواقي و علم السيميائيات.

بالتركيز على هذه العناصر سنسعى في هذه المداخلة إلى إثارة العلاقة بين المنطق اليوناني والسيميائيات لكي نكتشف الجذور الأولى لها، ونبين أن التفكير حول قضايا السيميائيات كالعلامة والاستعارة والرمز ليس وليد الفكر المعاصر بل شغل الفلاسفة منذ العصور القديمة واستمر في العصر الحديث وإلى أيامنا هذه، أين اتجه الكثير من الباحثين إلى استثمار المنطق في طرح مسائلها بالبحث في قواعد إنتاج المعنى، ولكي نبين أن علم العلامات

يمثل خطابا فلسفيا بالدرجة الأولى ولا ينحصر في مسائل اللسانية فقط ،فكيف يكون المنطق الشكل التقليدي للسيميائيات؟ وفيما تكمن المباحث السميائية الأولى؟ وأين تتجلى في المنطق اليوناني وبالخصوص المنطق الأرسطي والرواقي؟ مما لاشك أن الإجابات على هذه التساؤلات تستهلك الكثير من الوقت، ولا يتسع لها هذا المقام، وهذا ما جعلنا نستأنس بمواقف إيكو من المسألة باعتماد أهم كتبه في ميدان السيميائيات وهو" السميائية وفلسفة اللغة".

المنطق هو المفهوم الكلاسيكي للسيميائيات:

يجدر بنا قبل التفصيل في التاريخ البعيد للسيميائيات التعريف بها، حتى يتسنى لنا الانطلاق من المفهوم ذاته لإدراك علاقتها بالمنطق، فإن كان هذا الأخير علما معياريا يهتم بما يجب أن يكون عليه الفكر أو آلة تعصم الذهن من الوقوع في الزلل كما يعرفه فلاسفة الإسلام، فإنه يعنى كذلك علم يبحث في الشروط الصورية للاستدلال الصحيح، ويمثل قواعد وآليات التفكير والحصول على الدلالات المتنوعة، بينما السيميائيات تنطلق من مفهوم العلامة والتي تعرف ب –signe– في اللغة الأجنبية، وهي مشتقة من كلمة يونانية "سيميون" وقد ظهرت كمصطلح تقني مع بارمنيدس وأبوقراط وتظهر كمرادف لكلمة " تكميريون" ويعني دليل، سمة، عرض، هذا المفهوم اللغوي يبين أنها لا تختلف عن المنطق الذي يمثل طرق الاستدلال المشتق من الدليل بدوره، كما ترتد إلى مفهوم عام يمكن أن يحدد ماهيتها قبل أن تتأسس كعلم و باعتبارها متعلقة بكل مجالات الفعل الإنساني على أنها أداة لقراءة وفهم مختلف مظاهر السلوك الإنساني بدءا من الانفعالات البسيطة ومرورا بالطقوس الاجتماعية وانتهاء بالأنساق الإيديلوجية الكبرى(بنكراد، س.2005: 25) أما في الفترة المعاصرة فإنها تمثل علما جديدا لم يتفق المختصين في مجاله على تعريف محدد له حسب الأسس الابستيمولوجية التي يعتمد عليها كل فيلسوف في ضبطها، فهي إن كانت عند دوسوسير ترتبط بعلم العلامات وتفهم في إطار المسائل اللسانية وحسب نظريته القائلة باعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول، فإنها عند الفلاسفة تقترب من مسألة المعنى وقواعد التفكير أكثر من مسائل اللسان والمبنى، فهي عند بورس بحث في الأصول الأولية لانبثاق المعنى، تمثل طرقا استدلالية يتم بموجبها الحصول على دلالات وتداولها، وهي في جوهرها منطق لأنه في تعريفه مجرد تسمية أخرى لها، ويمكن القول بتعريفها الأشمل أنها علم يستمد أصوله ومبادئه من مجموعة كبيرة من الحقول المعرفية كاللسانيات والفلسفة والمنطق والتحليل النفسي والأنثربولوجيا يبحث في طرق إنتاج المعاني من الأشياء، مما يجعلها نظرية تأويلية أو صياغة جديدة لقضايا فلسفية ومعرفية موغلة في القدم، لا يستطيع الباحث أن يفهم مختلف المسائل السميائية إلا في إطارها، ولابد أن يعتمد على آليتها في تحليل وفهم حقائق مختلف

الظواهر، والتي تمثل في جوهرها المنطق وقواعده المختلفة من أجل استخراج مفاهيم ومدلولات محددة لها.

المباحث السميائية الأولى:

من أجل الإشارة إلى المباحث السميائية الأولى التي تعتبر منطلق البحث في أصول علم السيميائيات بمفهومه المعاصر عند إيكو، يجدر بنا عرض لمحة تاريخية لها تتعلق بالمرحلة التي وجدت فيها ما قبل المنطق الأرسطي والرواقي على حد سواء، فهما بدورهما لم ينشآ من العدم بل يرجعان إلى أسس يجب على كل باحث الإطلاع عليها لكي تكون له رؤية أوسع وأشمل للجذور الأولى للمنطق قبل ولادته عند أرسطو، وقبل تطور مباحثه في الفلسفة الرواقية، والتي تكون في الوقت ذاته الأرضية التي ترعرعت فيها المفاهيم السميائية كالعلامة والرمز والتي تدرك بوضوح أكثر في إطارها.

يؤكد إيكو في بداية أهم كتبه "السميائية وفلسفة اللغة" على ضرورة القيام بسبر وبإعادة بناء الفكر السميائي انطلاقا من العهد الكلاسيكي (إيكو، أ .2005: 32)،إذ يلح على اكتشاف المدخل التاريخي للسيميائيات، وذلك بضبط السياق الذي ظهرت فيه مختلف مقولات هذا العلم كأساس لفهمه،حيث يرى أن المفاهيم الأساسية لهذا العلم، وهي العلامة والمدلول والاستعارة والرمز والسنن لا يمكن اكتشاف حقيقتها إلا بالرجوع إلا السياقات التاريخية التي ظهرت فيها لأول مرة، ويدعوا إلى القيام برحلة في تاريخ هذه المفاهيم، والتي تكون متشعبة المسالك حسب تشعب ميادينها، لأنها تجعلنا نصطدم بدراسات متعددة كالطب والرياضيات والعلوم الطبيعية والبلاغة والتنجيم، ويؤكد أن من يعترضنا أكثر هم الفلاسفة، وهنا يظهر ضرورة الرجوع إلى الفلسفة لاكتشاف الجذور الأولى للسيميائيات، وإن كان هذا الحكم ينطبق على السيميائيات العامة التي تهتم بصياغة مبادئ فلسفية خاصة بالمعنى (بنكرادس. 2005: 32) فإنها تبقى المدخل لفهم كل أشكالها الأخرى.

فالمدخل الأساسي للسيميائيات في نظر إيكو يكمن في أبحاث الفلاسفة الذين طرحوا قضايا اللغة وفلسفة العلامة، حيث يصل إلى أنه بالإمكان فهم الفلسفات الكلاسيكية في إطار مسألة العلامات أو ببساطة يمكن أن نرد كل فلسفة إلى سميائية، فلا يمكن دراسة المنطق كأرغانون أو آلة تعصم الذهن من الوقوع في الزلل فحسب لإثارة تاريخها بل لابد من تجاوز هذا المفهوم الذي سائدا في تاريخ الفكر الفلسفي لحقبة طويلة ولاسيما في الفكر المسيحي والإسلامي، و يجب من ناحية أخرى إعادة النظر في النقد اللاذع الذي وجه للمنطق الأرسطي من طرف الفكر الحديث منذ تأسيس الأرغانون الجديد والثورة الديكارتية إلى يومنا هذا لأنه قد لا يجدي نفعا ولم يعبر سوى عن وجه من القراءة في الكثير من الأحيان، وهي تلك التي تثور على الميتافيزيقا وتتبنى العلم، فلا مناص من العودة إلى فلسفة اللغة واستثمار الدراسات

السيميائية في قراءة حقيقة للمنطق حسب أصوله الحقيقية، دون الرجوع إلى المنطق الذي قدمه فلاسفة العصر الوسيط الذي يمثل المنطق الصوري بل المنطق الأرسطي والمباحث الرواقية حوله على وجه الخصوص إذا أردنا أن نفهم البذور الأولى للفكر السيميائي بطريقة أكثر وضوحا وموضوعية ، فالعودة إلى الأصول ضرورة ملحة لقراءة جديدة وفعالة للمنطق الأرسطي، وللسيميائيات كأصوله الأولى باعتبارها قد أثارت أنظمة العلامات في محطات مختلفة حسب قواعد التفكير والاستدلال، وعليه تكون قراءة الأصول الأولى للمنطق هي في نفس الوقت قراءة المدخل والتأسيس للسيميائيات العامة كما يتصور أنصار الدراسة الفلسفية لها، ولو قمنا حسب إيكو بقراءة جيدة لأفكار الفلاسفة القدماء وفي مختلف العصور نجد أنهم قد قاموا بصياغة سيميائية معينة، وهو ما يجعلنا ندرك أن الحكم القائل أن كل سيميائية ترد إلى فلسفة يمكن أن يقلب إلى القول أن كل فلسفة ترد إلى سيميائية، وكلاهما صحيحا .

ومما لاشك أنه هذه قضية أخرى لا يتسع المقام لطرحها نظرا لسعة الموضوع الذي تطرحه، ولكن يتحتم على المشتغل بالسيميائيات أن يدرك لحظة التأسيس لها وهي الفلسفة، لذلك حاولنا أن نطرح العلاقة بين المباحث الفلسفية والسيميائية في إطار مسألة المنهج أو قواعد الفهم أو كيفيات الاستدلال ودورها في توليد المعاني، والتي تظهر فيما يسمى بالمنطق الذي كان آلة الفلسفة في الفهم، وعليه سنكتفي بدور المباحث المنطقية في تأسيس للسيميئيات دون الغوص في الميتافزيقا المؤسسة لها لأن هذه الأخيرة لا يمكن أن تنفصل عن المنطق بأي صورة من الصور، فهي حسب إيكو نمط من الفهم والتأويل يرتد إلى التصورات الأولى للحقيقة التي عاشها الإنسان على شكل قواعد منطقية صارمة في بعض الأحيان، وعلى شكل إشراقات صوفية في أحيان أخرى، فالمنطق آلة الفلسفة وروحها في الاستدلال، و حسب ابن تيمية هو مدخل الفلسفة، والتسلح به يساعد على فهم مختلف أشكال إنتاج المعنى في مختلف العصور كوظيفة أولية للسيميائيات التي لا تعتبر علم العلامات كما يعتقد أنصار الدراسة اللسانية لها بقدر ما هي البحث في الأصول الأولية لانبثاق المعنى أو هي طرق للاستدلال، ونفس هذه التعريفات تنطبق على المنطق الذي يبحث في قواعد الاستدلال التي يتم بموجبها الحصول على الدلالات، هذا التصور هو ما يدافع عنه مؤسس الفلسفة البراغماتية بيرس، وهو الذي حاولنا فهم أفكار إيكو حول الجذور الفلسفية للسيميائية في إطاره.

فإيكو عندما يبني مشروعه الجوهري وهو إعادة بناء تأريخي للسيميئيات يستعين بمفاهيم الاستدلال، المقولات، المحمول،الموضوع شجرة فورفيوس، التعريف، وغيرها، وهي كلها مواضيع تنتمي إلى المنطق الصوري في الأساس رغم ما يثيره من مسائل متعلقة بالفلسفة ككل وبفلسفة اللغة على وجه الخصوص في بنائها، وذلك لأننا لا نستطيع أن نفهم الأصول المنطقية لعلم السيميائيات إلا بالإطلاع على تاريخها العام في سياق الفكر الفلسفي، ولاسيما

في الأبحاث المتعلقة بفلسفة اللغة في العصر اليوناني، فرغم أن الاهتمام بالسيميائيات كنشاط فكري متميز ذو مكانة خاصة لم يظهر إلا في الفكر المعاصر فإن البحث في أصولها وبذورها الأولى يجعلنا ندرك أنها نشاطا معرفيا موغلا في القدم من حيث أصوله وجذوره الأولى، حيث تعود المحاولات الأولى في ميدانها إلى ما قبل اليونان وقبل وجود المنطق الصوري، وترتبط بما يسمى بأشكال التواصل الأولى والوسائط الأولى التي أقامها الإنسان بينه وبين العالم الخارجي، ومنذ البداية الأولى للتجريد والتحرر من العالم المحسوس، أين بدأ الإنسان يستعمل العلامات لكي يفهم بها مدلولات الأشياء.

انطلاقا مما سبق فإن السيميائيات كعلم قائم بذاته وحقل معرفي متميز يشتغل على المعنى ظهر في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ترتد أفكارها الأولى إلى فجر التاريخ والتراث القديم حيث حفلت كتب الأقدمين بإشارات تخص العلامات وأسسها في فهم الدلالات المرتبطة بتفاعل الإنسان مع محيطه، والمبادئ السيميائية تبلورت منذ أن بدأ الإنسان يستغني عن الصراخ والهرولة وحركات الجسد كأدوات للتواصل والتعبير عن الأشياء بعد تبلور أشكال رمزية تربط بين الإنسان والعالم الخارجي وتستمد قيمتها من العرف والتواضع، فالفضل في اكتشاف اللغة الاصطلاحية كترجمة للغة الطبيعية يعود إلى الانطلاق من العلامات في بناء المدلولات حسب دلالات محددة هي ما تعرف بالألفاظ، وبالتالي كانت السميئيات المنطلق الذي خلص الإنسان من العشوائية المترتبة عن تنافر الأشياء وكثرة المحسوسات، وحقق لها مجموعة القواعد والمبادئ التي ينظمها بها ويمسكها بعد الانتقال من المحسوس إلى المجرد وهي التي عرفت فيما بعد بالمنطق.

نستطيع أن نقول منذ البداية أن المباحث السيميائية الأولى تكمن في المنطق القديم ما دام هذا الأخير فن التفكير الصحيح الذي نقل فهم الوجود من الفوضى والعشوائية إلى النظام والانسجام، والتفكير في الأصل هو ضروب الفهم المختلفة التي لا يمكن أن تنفصل بدوره عن ما تسمى بالعلامة التي تتأسس عليها علم السيميائيات، وهو لا يحقق وظيفته إلا حسب قواعد تنظم العلامات ظهرت منذ القديم بعد حاجة الإنسان إليه في الاستدلال وإبعاد الذهن عن الوقوع في الزلل، وهي المنطق و هو الوجه الغائب للسيميائيات في تاريخ الفكر القديم من منظور أنه علم النحو الذي طرحته الفلسفة الرواقية (يوسف،أ: 2005، 17) و من أجل تحديد الأصول المنطقية الأولى لعلم السيميائيات عند أرسطو والرواقية على وجه الخصوص يجدر بنا أن نحدد الجذور الأولى للمنطق ذاته وذلك قبل تأسيسه مع أرسطو لأنها الأرضية له والمنطلق الأول لاستعمال العلامة كمحسوس ثم كفكرة مجردة.

تعود البذور الأولى للمنطق حسب بعض المؤلفين إلى الهنود القدماء حيث عرف البرهمانيون المناقشة القياسية، ولكن الأسس الأولى له تكمن في الرياضيات اليونانية، ولاسيما عند الفيثاغوريين الذين جعلوا العدد ماهية للأشياء، وكانت الرياضيات عندهم منطلقا لكل

الاستدلالات تكمن في الحساب والهندسة، وبغض النظر عن تحليل مساهمات الفلاسفة في تأسيس المنطق يمكن أن نثير المناهج المستخدمة قبل المنطق والتي كانت أرضية له، وهي الجدل الإيلي الذي يعتبر منهجا للمناقشة سابقا على المنطق، تجسد في الأفكار المنطقية لبارمانيدس وبالتحديد في فكرة الوجود وتمثل الحقيقة التي ميز فيها من الناحية المنطقية بين الحقيقة التي تعرف بالوجود، وبين الظن الذي يعرف باللاوجود، فمقولة بارمنيدس "الوجود موجود واللاوجود غير موجود " هي الحقيقة المثلى التي تعبر عنها لغة المنطق بمبدأ الهوية أهي أ (تريكو ج،1996: 29) والتي يمكن أن تعبر عن مبدأ عدم التناقض كذلك باعتباره صورة سلبية لمبدأ الهوية، هذه الأرضية التي ترعرع فيها المنطق هي الصياغات الأولى لجملة القواعد المنطقية الصارمة المتحكمة في فهم الوجود وتأويل العلامات، وهي التي تجعلنا ندرك أن العلامات في جوهرها أفكار يمكن أن تفهم بقواعد هي ما تمثل المنهج الجدلي على وجه الخصوص حيث كان سابقا لمنطق أرسطو وأرضية له في التأسيس لأشكال الفهم وطرائق الاستدلال الأولى.

فمفهوم العلامة قبل أن يتجلى ويتجسد في فهم أنماط التفكير في شكل قواعد منطقية صارمة كما يرى إيكو، كان منطلقا وأساسا لفهم مدلولات الظواهر الطبيعية كاعتبار الدخان علامة على وجود البشر في أمكنة معينة، هذا المعطى الحسي للعلامة بلور الإسهامات السابقة للمنطق الأرسطي في الإشارة إلى التحديدات السيميائية الأولى كمنطلقات للمعرفة وفهم ظواهر نجدها عند أبو قراط في ميدان دراسة الأعراض المرضية التي كانت بالنسبة له منطلقا لتكوين المعلومات حول الحالة، وبها كان يستدل على أسبابها، ويمكن القول أن الأعراض عنده تؤدي وظيفة علامية رغم انه لم يتوصل إلى ما تسمى بالعلامات اللغوية وذلك لأن عصره حسب ايكو لم يتجاوز المدلول الحسي للعلامة الذي بدأ يتبلور مع الفلاسفة الطبيعين أين تبين أنه يمكن التعبير عن الوجود بصور مختلفة وحسب ما تتيحه العلامات من مدلولات، هذه الصور المختلفة للتعبير تمثل المحاولات المنطقية الأولى التي تبلورت في الجدل الإيلي مع بارمنيدس وزينون الذي انطلقوا من الوجود كفكرة منطقية ووجودية على حد سواء، وهو ما استمر بعد ذلك مع الجدل السفسطائي والسقراطي والأفلاطوني الذي تحول إلى ولادة المنطق في عهد أرسطو، والذي كان في نفس الوقت ولادة للبواكير الأولى للسيميائيات المحددة في القواعد المنطقية عند الرواقيين وبالخصوص في منطق الشرطيات، وهي التي تكون الجذور الأولى لمفاهيم الاستعارة والعلامة والرمز وغير ذلك من المفاهيم التي تعتمد عليها السيميائيات التي تدرك من دون شك داخل النظرة المنطقية للوجود، والتي تجعل إيكو يصل إلى نتيجة مفادها أن كل محاولة ترمي إلى إضفاء طابع منطقي على الوجود يمكن إعدادها بمثابة دافع خفي وشرط ابستيمولوجي لكل تفكير

سيميائي – بن بوعزيز. و، 2008: 43- ، ومن أهم المحاولات المتعلقة بالموضوع المشار إليه تلك التي تجسدت في المنطق الأرسطي والرواقي.

المنطق الأرسطي والسيميائيات:

يدعوا إيكو إلى دراسة أركيولوجية للمفاهيم السيميائية بصدد الحديث عن منطق أرسطو كمؤسس لها حيث ينطلق من فلسفته التي تبنى على فكرة وهي: أن الوجود يمكن أن يقال أو أن تعبر عنه اللغة بطرق متنوعة ومتعددة، وهذه الفكرة من دون شك تعود إلى تصورات الفلاسفة الطبيعيين له التي قامت على أفكار تتعارض بين القول بالثبات والتغير والحركة والسكون، وكانت أرضية للجدل الذي يكون بدوره أرضية للمنطق الأرسطي أين يبلور الجدل في شكل قواعد صارمة تنتهي في الأخير إلى أنها بحث في علاقة المعنى بالأشياء في شكل قواعد تمثل سيميائيات مؤسسة ومقننة، وعليه يمكن أن نفهم دور منطق أرسطو في تأسيس السيميائيات بالتركيز على مفهومين وهما: العلامة والاستعارة كمنطلقات كبرى يعتبر أرسطو بمثابة المؤسس لها .

أما العلامة فهي تبنى من جوهر المنطق الأرسطي وهو فكرة التصور، وإذا كان هذا الأخير يتعلق بالأفكار المجردة في الذهن

فإنه يماثل المعاني الموجودة في النفس في شكل أمثلة وصور أو إيقونات للموجودات، أما الكلمات والحروف المقابلة لها هي ما تمثل السيميا أي علامات للمعاني التي في النفس أو هي المعبر عن تفاعلاتها، و أرسطو يرى أن الكلمات والحروف هي أدلة وعلامات على وجود تفاعلات نفسية، ولا يرى أن الكلمات هي علامات لأن هذه الأخيرة تمثل مبدأ استدلال، وهو ما يؤكد علاقتها الوثيقة بالمنطق لأنه قبل كل شيء آلة وطريق للاستدلال.

كما يستعين إيكو بمبادئ المنطق الأرسطي وأهمها فكرة المفهوم والماصدق لكي يبين حقيقة العلامة هل هي من المفهوم تمثل الصفات المحددة للشيء أم من الماصدق تمثل مجموعة الأفراد الذين تصدق أو تنطبق عليهم تلك الصفات؟ ويوظف أمثلة متنوعة لشرح المسألة يتساءل من خلالها إن كانت العلامة هي الكلمة أم المضمون ؟وهل تمثل حدثا ملموسا أم صورة مجردة؟ و يعترف بأنها متاهة فكرية وفلسفية تقع فيها فكرة العلامة التي لا يبقى لها إلا كونها تعبر عن علاقة قيام مقام، ووظيفتها الأساسية وهي النشاط الدلالي الذي تؤديه، ومن دون شك أن هذه الوظيفة لا تكتشف إلا بمعرفة آليات الاستدلال المنطقي، فحين يتساءل إيكو عن المعنى المقصود من قولنا في منزلي تعيش عشر قطط، هل هو المعنى المقصود أم أنني أملك عشر قطط؟ وما يتبع هذا القول من استدلالات محتملة، يرى أن هذا الطرف الثاني للقضية لا علاقة له بالمدلول اللغوي بل ينتمي إلى عالم البراهين الذي يعتمد على ربط الأحداث في شكل قضايا كمنطلق للفهم وتحديد المعنى، تلك التساؤلات تعكس ضرورة

التحكم في الآليات المنطقية لاكتشاف حقيقة العلامة كمنطلق متميز عند البشر يقوم على البرهان وفق تعويض هذا العالم بعالم آخر من الدلالات والتي تكون بدورها منطلقا لعالم من المدلولات يعتمد على استدلالات محتملة لا تحصى ولا تعد تدخل في نطاق المنطق.

أما عن الاستعارة كمفهوم جوهري في السيميائيات يعتبرها إيكو ألمع الصور البيانية وأكثرها ضرورة وكثافة، تشير عند أرسطو إلى كل الوجوه البلاغية لأنها بمثابة الجنس في المنطق تمثل حدا كليا يتضمن الصور البيانية الأخرى كالمجاز والكناية، وتمثل الرمز بصدد الحديث عن العلامات،فهي من بين المفاهيم التي نالت نصيبا وافرا من البحث عند أرسطو و لم يضف إليها الذين كتبوا في ميدانها بعده إلا النزر اليسير، و ترتد إلى جوهر المنطق الأرسطي وهو فكرة " تحصيل حاصل" باعتبارها تنويعات على بديهية واحدة تظهر في أشكال مختلفة للأحاديث المجازية التي تفتح بها أفاق جديدة في المعنى،ويوظفها إيكو في مختلف التصورات الواردة في رواياته.

ويحدد إيكو المفهوم الأرسطي للاستعارة وهي أنها اللجوء إلى اسم من نوع آخر أو هي نقل اسم يدل على شيء ما إلى شيء آخر، ويتم هذا النقل بخلفيات منطقية وذلك باعتماد ما يسمى بالكليات الخمس، وهي حدود كلية تمثل جملة الصفات الجوهرية والعرضية التي بالإمكان الانطلاق منها في بناء تعريفات الأشياء الحقيقة والتي تقوم على الماهية ، ويحدد نماذج لهذا الانتقال وهي إما أن يتم من إما من جنس إلى نوع أو من نوع إلى جنس أو من نوع على نوع أو باعتماد المماثلة، هنا يحدد أرسطو الطرق التي يمكن الاعتماد عليها في إنتاج المعنى وهو ما يدل على أن الاستعارة التي يقصد بها هنا المجاز المرسل بقدر ما هي فك الرموز و فضاء جديد للمعنى، بقدر ما هي تلاعب بألفاظ وفق قواعد منطقية صارمة في الكثير من الحالات، ومن أمثلة ذلك عند أرسطو توقفت سفينتي يمثل الوقوف فيها الجنس الذي يحتوي كل أنواع الإرساء، ويتجلى ذلك حسب إيكو في كتاب المقولات الذي يبين فيه أرسطو الترادف بين شيئين يكون حسب جنسهما والاستعارة ضرب من الترادف يرتبط إنتاجه وتأويله بشجرة فورفوريوس القائمة على ، و تكون بموجبه الاستعارة الأرسطية تمثل من الناحية المنطقية جنسا تندرج تحته ألاف الأنواع.

ووظف إيكو الاستعارة في ما ورد في رواية جزيرة اليوم السابق التي قارن بين شخص يستعمل المنظار الميكانيكي في تفسير وفهم الكون وآخر يتجاوزه إلى منظار آخر يسميه بالأرسطي وهو ليس آلة ميكانيكية بقدر ما هو قواعد ثابتة ويمثل نسيجا من الكلمات ورأيا ثاقبا يكون انسب وأصوب لفهم الكون، هنا يكمن المنظار الأرسطي في تجاوز الأجزاء المادية المكونة للمنظار إلى عناصر صورية مكونة للعقل تتحدد في جملة المقولات العشر التي صنفها أرسطو وهي: الماهية والكمية والصفة والعلاقة والحركة والعاطفة والموقع والزمن والمكان

والمظهر والتي هي في النهاية أساس الصور المجازية المتعلق بفهم الأشياء المادية التي وظفها في روايته.

ندرك مما سبق أهمية منطق أرسطو في تاريخ السيميائيات، بتوصله إلى نسقية سيميائية ذات طبيعة أنطولوجية تربط العلامات بالعوالم العيانية الفعلية، وذلك لأن هذه العلامات تنتظم داخل قوانين الوجود، بمعنى أن أبعادها أنطولوجية أساس وجودها، لكونها لا تفصل الصور المنطقية عن صور الوجود نفسه، ولكن ليس إلى الدرجة التي انتهجها المنطق الصوري في فلسفة العصور الوسطى لغايات تيولوجية بل تستمد من روح فلسفة تجمع التصورات السائدة قبله عند الفلاسفة الطبيعيين والتي تمثلت في الأسس الأولى لفهم الوجود وتأسيس نوع من السيميائيات الحسية ، وفلسفة سقراط وأفلاطون من ناحية أخرى حسب أفكارها المتعالية والمثالية ، تؤسس نسقا فلسفيا ومنطقيا يعد فاتحة التفكير السميائبي عند اليونان يقوم من خلاله فهم العلامة على أنها تطابق بين المادة والصورة لأنها تقوم على ارتباط وثيق بين الفكرة والصورة الحسية، وأسس نسقية سميائية ذات طبيعة أنطولوجية تربط العلامات بالعوالم الواقعية لأنها تربط بين الصور المنطقية والصور المنطقية والصور الوجود، وبالتالي قد وضع نسقا فلسفيا ومنطقيا شاملا باعتراف الكثير من الفلاسفة تبلورت من خلاله المبادئ والمقولات الأساسية التي كانت فاتحة التفكير السيميائي عند اليونان كما يرى ايكو ،فمهما هاجمه الكثير من الفلاسفة يبقى منطق وقياس أرسطو منطلقا للفكر السيميائي الذي كان يتوسم في نظرية الحدود على أنها سيرورة سيميائية كما يقول الباحث أحمد يوسف ، ويجدر فهمه على حقيقته وحسب أصوله .

المنطق الرواقي والسيميائيات:

إن الإطلاع على تاريخ المنطق التقليدي يجعلنا ندرك الفصل الكبير للرواقيين في بناءه وخاصة في منطق الشرطيات، فرغم ذهاب البعض أن المنطق الرواقي امتداد لمنطق أرسطو ، إلا أنهم أضافوا الكثير من المقولات الجديدة له، وقسموه إلى البلاغة والجدل وجعلوه جزء لا يتجزأ من الفلسفة وليس آلة للفكر كما اعتقد آخرون لأنه ينبثق من تصورات فلسفية تحد د معاملة الكبرى مما يجعله صاحب مواصفات سميائية ، لأن جوهر المنطق عندهم هو الجدل الذي ينقسم إلى الجدل الذي يتقسم إلى الدال والمدلول الذي يمثل المثل المفاهيم والاستدلالات ونظرية المعرفة ، وغايته الدفاع عن قضايا الأخلاق التي تعتبر أساس الفكر الرواقي ، ويبنى على النزعة الاسمية، ويتسم بالطابع الصوري في مقابل النزعة الواقعية والروح الأنطولوجية للمنطق أرسطي. هذه الاعتبارات ربطت المنطق بقضايا اللغة والدلالة التي جعلت الرواقيين مؤسسي التفكير السميائي القديم، لأنهم جمعوا بين نظريه العلامة ونظرية البرهان، كما اعتبروا أن الكلمات والجمل هي الأمارات، والمفاهيم والأحكام

والاستدلالات هي المشار إليها لهذه الأمارات، وركزوا على العلامات غير اللسانية كذلك ، وعالجوا الماهيات بوضعها علامات.

ويعرف الرواقيون المنطق بأنه ليس أداة كما اعتقد أرسطو بل هو علم حقيقي وجزء لا يتجزء من الفلسفة، موضوعه الاستدلالات ويشتمل على الخطابة والجدل(تريكو، ج.1966: 21)، هذا المفهوم يجعلنا ندرك أنهم ركزوا على الأسس النظرية لعلم المنطق، وبالتالي سيركزون على المنطلقات الفلسفية التي تأسست عليها فكرة العلامة، وشروط انتاج الدلالة، التي تجعل العلامة فضاء للاستدلالات المحتملة عندما تتحدد وفق آلية الاستلزام، إذ تمثل عندهم " قضية مكونة من ربط صحيح يكشف التالي" لأنهم أول من تحدث عن العلامة بصيغة الاستلزام وليس بصيغة التكافؤ التي تمثل التطابق بين العبارة والمضمون، وهي الاستدلال والتأويل وعلى ديناميكية توليد الدلالة كما يقول إيكو، كما أنهم أصحاب مذهب خاص بالعلامات وهي ما تمثل أنموذج "إن ⊢أ- إذا.." أي القياس الشرطي الذي كان الميزة الأساسية للمنطق عند الرواقيين، جعلهم يمثلون المنطلق الأول لتأسيس سيميائية متميزة عن منطق أرسطو ووفق منطق جديد وهو منطق الشرطيات حيث" نظرت فلسفة اللغة من الرواقيين إلى كاسير ومن علماء القرن الوسطى إلى فيكو ، ومن أوغسطين إلى فتنغاشتين في جميع أنظمة العلامات وبهذا المعنى فقد أثارت مسألة سيميائية في الأصل"وذلك لأن الفلسفة الرواقية ومنطقها- الذي يعد جزءا لا يتجزأ أثرت بصورة كبيرة في التفكير اللاحق لها الوسيط والحديث والمعاصر، قي بناء قضايا فلسفة اللغة بالبحث في فكرة الماهيات، وهي التي أثرت في فلسفة ديكارت التي سرعان ما حولت الماهيات إلى أفكار وكذلك في مكونات البلاغة الغربية وخطابها العلمي الذي يتوخى البحث عن معايير الحقيقة. وتلك سمات نظرية المعرفة التي انشغل بها الفلاسفة والمفكرون والعلماء على سواء في مختلف العصور، وهو ما يكون الهاجس المركزي للبحوث السيميائية ذات الصبغة الفلسفية التي تبلورت مع بيرس وإيكو والتي نحن في حاجة ماسة إلى فهمها، وهذه الضرورة الفكرية حسب إيكو هي ما لمحنا إليها في مقالنا هذا لا تتحقق إلا بإعادة اكتشاف أسرار المنطق على وجه العموم و الرواقي على وجه الخصوص.

الخاتمة :

نستنتج من أبحاث إيكو حول السيميائيات والمنطق التقليدي، ومن هذه الإطلالة الموجزة على المنطق كتاريخ للمباحث السيميائية ضرورة البحث في الأسس الفلسفية لها التي لا تزال مغامرة يخشى الكثيرون الخوض فيها، وأهم تلك الأسس المنطلق الجوهري لها في الفكر الكلاسيكي، وهو التصورات الأولية والأصول المنطقية لفكرة العلامة التي أهملت لفترة طويلة، وتم الصمت عن الحديث عنها، التي تتمثل أهم مميزاتها علاقة القيام مقام وليست

تجليا لشيء، مما يجعلها ترتكز على آلية الاستدلال التي تمثل ما يسمى بالمنطق لكي تجسد مفهومها الحقيقي، وهو توليد الدلالة وإنتاج المعنى،وعدم اعتبارها تشابه أو تكافؤا أو تطابقا بين العبارة والمضمون بل هي توجيه للتأويل وآلية للإستنتاج والاستدلال، ومن هذا المنطلق يكون الحفر في الأصول المنطقية للسيميائيات السند الجوهري لتحقيق مهمة الفكر الأساسية ابتداء من النصف الثاني من القرن العشرين وهي تكوين رؤية سيميائية شاملة لا تتعلق بمباحث اللغة وقراءة النصوص الأدبية والدينية فحسب بل تستوعب من زاويتها حتى مسائل الفيزياء وعلم النفس والبيولوجيا والتاريخ، ومما لا شك فيها أنها ليست سهلة التحقيق، ولكن يمكن القيام بها لو استوعبنا الأسس الفلسفية والمنطقية التي تجسدت في المباحث السيميائية الكلاسيكية، ولاسيما في أصولها الأولى التي تبلورت في المنطق اليوناني منذ اللحظة الأولى لتأسيسه المتمثلة في ميلاد المنهج الجدلي عند الفلاسفة الطبيعيين والسفسطائيين والسقراطيين إلى غاية ولادته ونشأته مع المنطق الأرسطي والرواقي على وجه الخصوص، حيث كان ولازال يهيمن على الفكر البشري، واتضحت الأهمية القصوى له بالحفر في تاريخ السيميائيات كمنهج معاصر لا نستطيع فهم واستثماره وتفعيله في فهم النصوص والوقائع على حد سواء إلا بالعودة إلى شكله الكلاسيكي، وهو المنطق أو اكتشاف أسسه الفلسفية بمعنى آخر، تلكم هي المهمة التي ألح إيكو على القيام بها لتحقيق التقدم في البحث العلمي ليس في السيميائيات فقط بل قي كل العلوم وفي المناهج الأخرى.

المراجع:

-إيكو أمبرتو ، السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة د أحمد الصمعي، مركز دراسات الوحدة العربية،ط1، 2005.
-إيكو أمبرتو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية،ترجمة سعيد بنكراد،ط2، 2004.
-أحمد يوسف، السيميائيات الواصفة، منشورات الاختلاف ط1، 2005.
-بنكراد سعيد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها،دار الحوار ط2: 2005.
-تريكو جول، المنطق الصوري، ديوان المطبوعات الجامعية،ط2، 1992.
- يعوبي محمود، دروس المنطق الصوري، ديوان المطبوعات الجامعية،ط3، 2009.
-بن بوعزيز وحيد، حدود التأويل، قراءة في مشروع إمبرتو إيكو النقدي، منشورات الاختلاف، ط1، 2008.